

الموشحات الأندلسية بين الإبداع والاتباع انطلاقاً من الخرجات المطعمة بالعبارات الأعجمية

لمصطفى الغديوي - كلية الآداب

بوجدة - المغرب

من المعروف أن مسألة الموشحات بين الإبداع الأندلسي والتقليد للمشرق العربي قد أسالت كثيراً من الحير إلى حد لا يكاد يخلو من مناقشتها بحث عالٍ فن الموشحات الأندلسية؛ فبعض الدارسين أفاضوا في الموضوع ثم تركوه معلقاً⁽¹⁾، وبعض آخر قال فيها كلمة الفصل⁽²⁾. لكن هناك رأي آخر تناول الموشحات من زاوية أخرى: هل الموشحات إبداع أندلسي عربي أم تقليد لأصول محلية إسبانية؟. وقد أثار النقاش حول الموضوع مجموعة من المستشرقين، الإسبان منهم خاصة، وبعض الدارسين العرب.

ويعود تاريخ إثارة هذه المسألة بشكل حاد إلى بداية هذا القرن، رغم أن بوادر التشكيك في أصالة الموشحات الأندلسية يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر حين نشر هارتمان الألمانى كتابه «الموشح»⁽³⁾. ويتضمن هذا لكتاب مجموعة من الموشحات المأخوذة من شتى المصادر القديمة. وكان كتاب «هارتمان» المرجع الأساسي المعتمد لدى المستشرقين الذين اعتنوا - منذ ذلك العهد -

(1) الأدب الأندلسي: التطور والتجديد د. محمد عبد المنعم خفاجي: 400. الموشحات الأندلسية د. محمد زكريا عناني سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1981 ص: 21 - 24، فن التوشيح د. مصطفى عوض الكريم: 107-119، أدباء العرب في الأندلس لبطرس البستاني: 171-172 ط. دار مارون عبود. بيروت (ب. تا).

(2) الذخيرة لابن بسام: 496/1/1.

- مقدمة ابن خلدون: 583، توشيح التوشيح للصفدي: 20، الأدب العربي في الأندلس د. عبد العزيز عتيق: 342، الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه د. مصطفى الشكعة: 373، الأدب العربي في الأندلس لمحمد سرحان: 133، في الأدب الأندلسي د. جودت الركابي: 286، ملامح الشعر الأندلسي د. عمر الدقاق: 336، فصول في الأدب الأندلسي د. حكمة علي الأوسي 167، مقدمة تحقيق جيش التوشيح لهلل ناجي... إلخ.

-Das arabisches strophengedicht:

Das Muwassah. Hartman M. Weimar 1897.

ثم أعيد طبعه 1980 بألمانيا الشرقية في غير.

بهذا الفن الأندلسي الطريف.

وقيدوم هذه الفئة من الباحثين هو «خوليان ريبيرا» الذي صرّح في خطابه الذي ألقاه في المجمع العلمي الإسباني بمناسبة استقباله عضوا جديدا في هذه الهيئة عام 1912⁽⁴⁾، بأن الموشح استمدّ بعض عناصره الأساسية من الشعر الغنائي الشعبي الإسباني (الأغاني الرومانسية)، معتمدا في ذلك على بعض الموشحات وعلى قراءته الخاصة لفقرة أوردها ابن بسّام في كتابه الذخيرة، حيث يقول : «وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفئتنا واخترع طريقته - فيما بلغني - محمد بن محمود القبري الضرير، وكان يصنعها على أشطار الأشعار، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركّز، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان»⁽⁵⁾.

وفسّر ريبيرا لفظة المركّز - في كلام ابن بسّام - المركّز الأساسي أو المحور الذي تبنى عليه الموشحة، على حين يعني ابن بسّام بالمركّز الخرجة أو القفل الأخير من الموشحة. ثمّ بنى أطروحته على هذه العبارة وذهب إلى أن الشعر الشعبي الذي اقتبست منه الموشحات الأندلسية عناصرها الأساسية هو الأغاني الرومانسية التي كانت سائدة أواخر القرن 9 / 3، وهذا يتزامن مع ظهور الموشح. كما علّل هذه الأطروحة بأن الموشح انحدر من أصول إسبانية «رومانسية» لوجود بعض مقاطع الأغاني الشعبية في الخرجات، تلك التي جاءت بفضل الحاضنات والمريّيات والجواري والرقّيق الإسباني الوافد من الشمال، فاستخدمها المستعربون والعرب في الأندلس، ودخلت البيوت ومحافل القضاة والأمراء في الأعياد والمناسبات وحفلات الزّواج والختان، فأعجب الأندلسيون بها وازدادوا افتتانهم وتأثّرهم بجمالها وروعته، فأخذوا الشّاعرون والشّعراء لينظموا على غرارها⁽⁶⁾.

(4) انظر مقالة «الموشح والرّجل همزة وصل بين ثقافات مختلفة» للأستاذ شارل بيللا، مجلة كليّة الآداب. جامعة الرياض المجلد الأوّل سنة 1390 / 1970، ص: 45.

(5) الذخيرة : 469/1/1

(6) تفاصيل أطروحته في كتابه :

Disertaciones y Opúsculos T1. pp 49 - 55 ed. Madrid 1927.

وانظر تلخيص آرائه في «جوانب من التأثير العربي في الشعر الإسباني والشعر الأروبي» د. حكمت علي الأوسي «مجلة كليّة الآداب - جامعة بغداد العدد 26 عام 1979 ص 545 وما بعدها.

ووجد هذا الرأي صدى واسعا عند المستشرقين المهتمين بفنّ التوشيح، ودفعهم إلى مزيد من البحث في الموضوع، فتوالى البحوث والمقالات⁽⁷⁾. وستعرض لأهمّها وأكثرها التصاقا بالموضوع.

ففي 1948 كتب «شتيرن» مقالة بعنوان «خرجات إسبانية في موشحات عربية وعبرانية» ونشرها بمجلة الأندلس⁽⁸⁾.

Les vers finaux en espagnol dans les muwassahs hispanohebraiques.

وقد قاده إلى ذلك اطلاعه على مخطوطة جديدة عظيمة الأهمية هي : «عدة الجليس وموانسة الوزير والرئيس» لابن بشري الغرناطي التي كانت في حوزة المستشرق الفرنسي ج. كولان⁽⁹⁾. وقد أثارت مقالاته هذه ضجة كبيرة حين أعلن عن اشتراك موشحات عربية وأخرى عبرانية في خرجات أعجمية.

ويعد ظهور هذه المقالة بسنة قام الباحثة إميليو غارسيا غومس باستخراج مجموعة من الموشحات الأندلسية التي ختمت بخرجات أعجمية. ومصدره الأساسي في ذلك هو كتاب «عدة الجليس» - المشار إليه من قبل. وقد بلغ عدد الخرجات التي استخرجها وعلّق عليها ستاً وعشرين خرجة ليعلن عن نظريته في الموضوع بقوله : «إن وجود نفس الخرجة في موشحة عربية، وفي

(7) من ذلك : (الشعر العربي الأوربي)

-R. Menendez Pidal: Poesía árabe y poesía europea I ed. Madrid 1941.

-Poesía Juglaresca y juglares. Aspectos de la historia literaria y cultura de España I ed. 1942.

-R.A.Nykl : Hispano arabic poetry Baltimore 1946.

-J.Millas Vallicrosa: Sobre los más antiguos versos en la lengua castellana. Revista sefarad Vol. 2 p. 362-371.

نشرت في هذه المقالة ثلاث خرجات وجدها في موشحات عبرية 1946.

-Les vers finaux en espagnol dans les muwassahs hispano-hebraiques: une (8) contribution à l'histoire du muwassah et à l'étude du vieux dialecte espagnol "mozarabe" en Al-Andalus Vol. XIII p. 289-348 Madrid 1949.

ثمّ نشر مقالة أخرى في هذا السياق :

-Un muwassah arabe avec terminaison espagnol. Al-Andalus Vol. XIV Madrid 1949.

(9) وقد ظهرت المخطوطة أخيراً وحققها ألن جونز وطبعت بأكسفورد، بريطانيا 1992.

أخرى عبرية في موشحاتين لوشاحين مختلفين لدليل يؤيد بأن هذه الخرجات عبارة عن أغان قصيرة باللهجة الرومانشية كانت معروفة قبل تضمينها في الموشحات العربية والعبرية، وعلى هذه الأغاني بنيت الموشحات»⁽¹⁰⁾.

هذه هي النتيجة التي قادته إليه مجموعة من البحوث التي نشرها بمجلة الأندلس⁽¹¹⁾. وإذا أمعنا النظر في نتائج «شتيرن» و«غومس» فإننا نجد إحياء لأطروحة «خ. ريبيرا»، مع تقديم أدلة ملموسة وجهاها توجيهها معينا. كما سيتضح في مناقشتنا لها. ومن الباحثين الذين اقتربوا من آراء هؤلاء المستشرقين المرحوم عبد العزيز الأهواني، وحبته في ذلك «أن مضمون الخرجات بصفة عامة، والمختلطة بصفة خاصة، وما فيها من تغزل الفتاة بحبيبها شيء لا نظير له في الشعر العربي. والخرجات كلها - تقريبا - على لسان فتاة تتغزل في فتى وتعلن حبها وشوقها إليه»⁽¹²⁾.

(10) مقتبسة من مقاله:

Lalírica hispano-arabe y la aparición de lírica románica en Al-Andalus Vol. XXI Madrid 1956. pp. 303-338.

(11) وسبقت هذه المقالة مجموعة من البحوث التي استخلص منها هذه النتيجة وهي :

-Más Sobre Las jaryas romances en Muwassahas hebreas en Al-Andalus. Vol. XIV Madrid 1949 pp. 409-417.

-Nuevas observaciones sobre Las "jarchas" romances en muwassahas hebreas en Al-Andalus XV 1950 pp. 157-177.

-Veinticuatro "Jaryas" romances en Muwassahas arabes en Al-Andalus Vol. XVII 1952-pp. 57-127.

-La Muwassaha de de Ybn Baqí de Córdoba (Malady) con Jarya romance en Al-Andalus Vol. XIX Madrid 1954 pp. 43-52.

-Dos nuevas Jaryas romances (25,26) en Muwassahas árabes. en Al-Andalus XIX-1954-pp. 369-391.

ثم جمع هذه المقالات مع إضافات أخرى ونشرها في كتابه بعنوان «الخرجات الرومانشية في إطار الموشحات العربية».

Las Jarchas romances de la serie árabe en su marco Madrid 1965 y 2a ed. Barcelona 1975.

(12) تلخيص لما جاء في كتابه الزجل في الأندلس ص: 2-51. وقد حاول أن يثبت فيها بأن الخرجات الأعجمية هي بقايا من أغان شعبية إسبانية قديمة «رومانشية»، علما أنه كان قد أطلع على كتاب عدة المجلس واستثمره في كتابه (ط. القاهرة 1957).

أما آراء بطرس البستاني ومصطفى عوض الكريم فكانت أخطر آراء الدارسين للموشحات إذ تبنيّا آراء المستشرقين سميتها وغيّوها. وهي آراء مفادها أن أصول الموشحات ليست عربية إطلاقاً⁽¹³⁾.

ويمكن تلخيص حجج الذين يرون أن الموشحات نشأت تقليدا لضرب من الأغاني الشعبية الإسبانية القديمة «الرومانشية» في ما يلي :

- وجود خرجات مطعّمة بعبارات رومانشية في الموشحات العربية والعبرية.
- خروج الموشح عن سنة الشعر العربي في الغزل، فصارت المرأة هي المتغزلة في المذكر بدل العكس.

- شيوع أوزان الموشحات التي لا تجري على العروض العربي وبحور الشعر.
قبل مناقشة هذه الآراء ينبغي أن نعود إلى مصادر الموشحات لمعرفة حجم الموشحات ذات خرجات أعجمية، تلك التي بنيت عليها نظريات وأطاريح تذهب إلى أن أصول الموشحات إسبانية.

أولا : حجم الموشحات ذات خرجات أعجمية :

فيما مضى كان البحّاث د. سيد غازي قد قام بإحصاء غداة جمعه الموشحات الأندلسية في ديوان خاص، فوجد حجمها 447 موشحة ما بين كاملة ومقطوعة، ولم يكن قد أدخل في الجمع والإحصاء ما تضمّنه كتاب «عدة الجليس ومؤانسة الوزير الرئيس» إلا ما نشر منه إميليو غارسيا غومس من موشحات ذات خرجات رومية على صفحات مجلة الأندلس.

ويظهر كتاب عدة الجليس تبين لي - بعد قراءة سريعة - أنه يضمّ سبعا وسبعين ومائة موشحة لم ترد في ديوان الموشحات. بذلك سيصبح عدد الموشحات أربعاً وعشرين وست مائة موشحة. أما عدد الموشحات التي تنتهي بخرجات أعجمية فهي ست وأربعون موشحة، حسب

(13) ينظر كتاب «فن التوشيح» لمصطفى عوض الكريم ص: 107-119 متكنا على آراء «ترند» الواردة في كتابه :

The Language and History of Spain By J.B.Trend (Great Britain 1953).

وتوجد آراء البستاني في كتابه «أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ط. الثالثة. بيروت ص: 109-118 وط. دار مارون عبود المنقحة ص: 171-172.

المصادر التي اطلعت عليها ، وتفصيلها - بعد مقارنتها وإسقاط المكررة منها في هذه المصادر - كالآتي :

- 1 - جيش التوشيح ، ورد فيه تسع عشرة موشحة من هذا الصنف.
 - 2 - عدة الجليس ، ورد فيه اثنتان وثلاثون موشحة من هذا الصنف.
 - 3 - ديوان الأعمى التطيلي ، موشحتان.
 - 4 - ديوان الجزار السرقسطي ، ثلاث موشحات من هذا الصنف.
- فمجموعها في هذه المصادر ست وأربعون موشحة.

وإذا قمنا بإحصاء لتحديد نسبتها إلى مجموع الموشحات (100×46) وجدناها 7,37٪.

624

أي 92,63 من الموشحات الأندلسية خرجاتها عربية ، سواء كانت لغتها فصيحة أم عامية عربية ، بينما يبقى 7,37٪ من الموشحات جاءت خرجاتها مطعمة بألفاظ وعبارات أعجمية . وهذه النسبة لا تكفي - بلغة الإحصاء - لكي تكون أساسا للتأثير .

أما وشاحو هذه الخرجات فهم ستة عشر وشاحا من الوشاحين المعروفين⁽¹⁴⁾ ، بالإضافة إلى إحدى عشرة موشحة لمجهولين لا نعرف شيئا عنهم ، منهم أحد عشر من عصر الطوائف ، وأربعة من عصر المرابطين ، ووشاح واحد من عصر الموحدين . مع العلم أنه وصلتنا موشحات أندلسية من العصر الأموي أي قبل عصور هؤلاء ، ولم ترد فيها ألفاظ أعجمية⁽¹⁵⁾ . ثم أن وشاحي هذه الخرجات نجدهم يكثرون في عصر الطوائف حيث كثر الاختلاط بين العرب والنصارى ، وبالأخص حين شاع هذا الاختلاط عن طريق الزواج بالنصرانيات ، والأسر ، واستجلاب الجواري والخادومات القشتاليات إلى قصور الأمراء . وما أكثرها في هذا العصر ! - حيث شاعت مفردات وعبارات اللغات الإسبانية - منها اللهجة الرومانشية - في اللغة اليومية المتداولة آنذاك ، وبالأخص في

(14) وهم : المعتمد بن عباد - ابن رجم - ابن لبون - الكميث الغربي - ابن الحجاز - الجزار السرقسطي - ابن المعلم - ابن عبادة - ابن رافع رأسه - الأصبحي اللاردي - ابن اللبانة - المنيشي - الأعمى التطيلي - ابن بقي - ابن الصيرفي - أحمد بن مالك .

(15) أعني بذلك موشحتين لعبادة بن عبد الله بن ماء السماء (عاش في فترة الحجابة العامرية وأدرك عصر الفتنة القرطبية (ت. 419 / 1028) موشحته في ديوان الموشحات الأندلسية صنعة د. سيد غازي : 5/1 وتوشيح التوشيح : 113 ، ديوان الموشحات 10/1).

حواضر الأندلس ومدنها الكبرى، كما شاعت الأغاني الإسبانية وردّد السّاهرون مقاطع منها، علما أن عصر الطوائف شاع فيه الانحلال إلى حدّ الخلاعة والمجون، وكان الأمراء يتسابقون على الإكثار من إقامة السّهرات الغنائية وحبّ المغنّين والمطربين، فكان من الطّبيعي أن تحفظ مقاطع غنائية مختلفة على ألسنة عشاق فنّ الطّرب، وفي مقدّمتهم الوشّاحون أصحاب نظم الكلمات الغنائية، لأنّ الموشّحات أنشئت أصلا للغناء والطّرب.

من هنا نجد الوشّاحين يضمنون موشّحاتهم كلمات وعبارات متداولة إرضاء للمستمعين. والمستمعون آنذاك فيهم العربي والإسباني وبالأخصّ الجوّاري والمطربات اللّاتي يحضرن السّهرات الغنائية في قصور الأمراء. ثمّ بدأ هذا الصّنف من الموشّحات يقلّ تدريجيا في عصر المرابطين والموحّدين، لما تميّز به العصران من كفاح وجهاد وجدية ومحاربة اللّهُو والعبث. وفي عصر إمارة غرناطة اختفت نهائيا لكون هذا العصر عصر انحسار وحروب وعداوة بين المسلمين والنّصارى. فالمصادر التي بين أيدينا لا تتضمّن موشّحة واحدة من هذا الصنف في عصر إمارة غرناطة، رغم ما عرف هذا العصر من كبار الوشّاحين من أمثال ابن خاتمة وابن الخطيب وابن زُمر.

ثانيا : مسألة ورود بعض الخرجات المطعّمة بالألفاظ الأعجميّة في موشّحات عربيّة وعبرانيّة التي اكتشفها «شتيرن» وبنى عليها «أميليو غارسيا غومس» نظريّته تعتبر حجة ضعيفة على «إسبانية» الموشّحات للأسباب الآتيّة :

إنّ الموشّحات العبريّة في الأندلس نشأت محاكاة للموشّح العربيّ، وكان السّبب الأساسي لنقل اليهود هذا الفن هو محاكاتهم العرب في التّعنيّ بها في حفلات السّمر واللّهُو، قبل أن تنتقل الموشّحات العبريّة إلى أناشيد تنشد في مناسبات دينيّة⁽¹⁶⁾. والأدلة على ذلك كثيرة، منها أنّ الموشّح العبريّ «شيراזור» يحاكي الموشّح العربيّ في نظامه وبنائه، إذ يتألّف من أقفال «أزوريم» تتكوّن من سطر «طور» أو أكثر، ومجموعة من الأدوار «يزمون» تتكوّن من أسماط غالبا ما تكون ثلاثة، وتتفق الأقفال في الوزن والقافية، كما تتفق أسماط الدّور الواحد في القافية أيضا. وأكثر الموشّحات العبريّة صيغت على أوزان الموشّحات العربيّة كما لاحظ ذلك د.

(16) انظر مقالة : د. محمّد بحر عبد المجيد «الموشّحات العبريّة» في مجلّة «الشّعر» المصريّة، العدد الخامس 1977 ص. 138، القاهرة.

محمد بحر عبد المجيد المتخصّص في الأدب العبري⁽¹⁷⁾. أو كما يقول د. مصطفى الشكعة : «إن ظهور الموشحات العبرية هو تقليد للموشحات العربية بنيانا وموضوعا⁽¹⁸⁾».

وقد بنى أميليو غرسية غومس نظريته على نصوص استخرجها من عدّة الجليس وهي :
موشحة ابن بقي التي مطلعها :

أَجَرْتُ لَنَا مِنْ دِيَارِ الْخِلِّ رِيحُ الصَّبَا عِبْرَاتِ الذَّلِّ

وخرجتها :

بِسِنْدَلٍ بَشَقَّةٍ يُيُونُ شِنْلُ (لَصْرَنْدُ مَوْقَرْجُونُ بُرْلُ)

في الإسبانية :

Viene la pascua e yo sin él

Lasrando mi corazon por él

وأصلها كما رسمها أ. غومس:

Bnd' | Bsqh'ywn sn |

Lsrnd mw q Rywn br |.

ومعناها : أقبل العيد وما أزال بدونه يبكي فؤادي أسى من أجله⁽¹⁹⁾. فهذه الخرجة

موجودة في موشحة عبرية للوشاح يهودا اللاوي (ت 536 / 1141) وهو معاصر لابن بقي (540 / 1145).

ثم موشحة أخرى لمجهول مطلعها :

أَيَّ عَيْشٍ يَكْدُ مَحْزُونُ سَلَبَتْ قَلْبَهُ الْحَوْرُ الْعَيْنُ

وخرجتها :

كُمُ سِي فِلْيُولُ أَلْيُنُو تُونُ مَشْ أَدْرُمَشْ أَمُوشِينُو

(17) نفس المصدر.

(18) الأدب الأندلسي : موضوعاته وفنونه ص. 385 بتصرف وتلخيص.

(19) عدّة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس رقم 167 ص. 245 تحقيق ألن جونز أكسفورد 1992، ديوان الموشحات صنعة د. سيد غازي : 476/1.

Las jarchas romances de la serie arabe en su marco. (E.G.Gomez) Madrid 1965 pp. 130. Hispano - arabic strophic poetry (stern) pp. 135-136.

أي :

Como Si fijo ello Olyno

non mas duermes mi ami sino

وفي الأصل كما رسمها أ. غومس

Km Flw, Lynw

Nwnms, Drms, Mwsynw

ومعناها : « كأنك ولدي بالتَّبَنِّي، فما عدت تنام جنبي »⁽²⁰⁾. والخرجة في موشحة عبرية

ليهودا اللاوي أيضا.

واستشهد غومس بموشحة ثالثة لابن رقيم (520 هـ) من شعراء الطوائف والمرابطين

ومطلعها :

يا نسيَمَ الرِّيحِ إنْ عُبَّتْ على رُبَّةِ القُرْطِ
فاهْدِها مِنِّي رِيحانَ السَّلا مِ على الشُّحْطِ

وخرجتها :

فشكت ذلك وقالت لي بالود :

نُونُ مَطْنَكشْ يا حَبِيبِي لَأَنْ قِرْدَنِيشْ
الغِلالَه رَحْصَة بَشَتْ أَطُو طومِرْفُشْ

في الإسبانية :

Nometoque yà habibi

La, no quiero daños

Algalàla rajsa

basta a todo me rehuso

(20) عدّة الجليس رقم : 260 ص. 390، ديوان الموشحات : 651/2.

-Las jarchas romances p. 168.

-Hispano-arabic strophic pp. 137-138.

Nwn M tnks ya habibi la

N gr dnys

Al gilalah rajisah Bst

Tutu M rfys

ومعناها : لا تلمسني يا حبيبي، لا أحب أن تؤذي. الغلالة رخصة كفى ! لست أقبل ما تصنع⁽²¹⁾.

والخرجة موجودة أيضا في موشحة ليهودا اللاوي، كما وردت أيضا في موشحة لابن بقي⁽²²⁾.

هذه هي النماذج الأساسية التي بنى عليها أ.غ. غومس أطروحته كما سبقت الإشارة. ومادامت الموشحات العبرية كانت محاكاة للموشحات العربية وتقليدا لها بناء وموضوعا، فإن التأثير والتأثر مسألة عادية سواء ضمن هؤلاء الشاحون خرجات يهودا اللاوي أو العكس، فالفرع يرد إلى الأصل. علما أن أقدم الموشحات العبرية في الأندلس تنسب إلى فئة من الشاحين عاشوا في عصر الطوائف ويَعده. ولا نجد موشحة عبرية قبل الموشحات العربية التي وصلت إلينا من عصر الأمويين، وأقدم هؤلاء الشاحين اليهود الذين وصلت إلينا موشحاتهم : إسماعيل بن النغيلة، أو صموئيل هناجيد (448 هـ / 1056 م) وإسحاق بن غياث (482 هـ / 1089 م) ويهودا اللاوي (536 هـ / 1141 م)، وموسى بن يعقوب بن عزرا (536 هـ / 1140 م)، ويوسف بن صديق (526 هـ / 1149 م)، وإبراهيم بن عزرا (545 هـ / 1167 م)⁽²³⁾.

(21) عدة المجلس رقم : 345 ص. 17-516، ديوان الموشحات: 349/1 - 351.

-Las jarchas romances p. 216.

-Hispano-arabic strophic pp. 138-139.

(22) انظر جيش التوشيح : 117، ديوان الموشحات : 482/1.

Las jarchas romances pp. 206.

(23) بحسب ما جمع من نصوص الموشحات العبرية في الأندلس انظر :

- حاييم شيرمان: هشيرة ها عفریت بسفاداد أويروفانس تل أبيب 1954.

- الشعر العبري د. محمد محمد القصاص. القاهرة 1958-1959.

- الموشحات العبرية ليهودا هاليقي أطروحة الدكتوراه بجامعة أكسفورد 1972.

- شيريم هداشين من هاجنيزاه القدس 1965.

ثمَّ أنَّ المستعرب أ.غ. غومس لم يناقش نصوصاً أخرى من الموشحات وردت في كتاب عدَّة الجليس نفسه، وهي من صميم التأثير والتأثر بين الموشحات العربيَّة والعبريَّة، أذكر من ذلك الموشحة السَّادسة عشرة (16 ص : 25 - 26) لمجهول مطلعها :

نَسِيم السَّرُوضِ فَاحٌ فُتِّقُوا مُوْأَ نَشْرَبْ

فهذا المطلع ورد خرجة فصيحة في موشحة ليهودا اللاوي العبريَّة بدون تغيير أو حذف. ثمَّ موشحة رقم 71 (ص 109 - 110) لأبي بكر بن الأبيض (من عصر المرابطين)، خرجتها فصيحة⁽²⁴⁾ وردت في موشحتين عبريتين : إحداها لموسى بن يعقوب بن عزرا، والأخرى ليهودا اللاوي، والوشاحان معاصران لابن الأبيض وماتا بعده. ثمَّ موشحة أخرى لابن باجة (ت. 533 / 1128) (رقم : 106 ص : 161 - 162) مطلعها يوجد خرجة لموشحة يهودا بن غياث (ت. 12/6) وكان معاصراً له، وعارضها وشاحون يهود، بعد ذلك⁽²⁵⁾. والأمثلة كثيرة على هذا⁽²⁶⁾. وهي كلّها تسقط نظريَّة أميليو غاريا غومس وتدحضها.

من هنا يمكن القول: إنَّ ورود خرجات رومانسيَّة - أو غير رومانسيَّة - مشتركة في الموشحات العربيَّة والموشحات العبريَّة من باب التأثير العربيّ في موشحات اليهود، وليس من قبيل استقاء الفريقين ذلك من الشعر الشعبيّ الإسبانيّ «الأغاني الرومانسيَّة».

ولنا أدلّة أخرى في هذا السياق من مصادر متعدّدة، منها قول ابن سناء الملك : «وكنّ لما أولعت بعمل الموشحات قد نكبتُ عمّا يعملهُ المصريّون من استعارتهم لخرجات موشحاتهم خرجات موشحات المغاربة، فكنت إذا عملت موشحاً لا أستعير خرجةً غيري، بل ابتكرها وأخترتها ولا أَرْضى باستعارتها، وقد كنت نَحَوْتُ فيها نحوَ المغاربة، وقصدت ما قصدوه، واخترت أوزاناً ما وقعوا عليها ولم يبق شيء عملوه إلا عملته، إلا الخرجات الأعجميَّة فإنّها كانت بربريَّة، فلمّا اتَّفَق

(24) بالله يا رسول قل للخليل كيف السبيل وتبيت عندي
نعتيه دلال خلف الحجال على النكال ونزيد نهدي
(25) انظر :

Stern: Hispano arabic strophic Poetry, p. 105-120-181.

(26) انظر الموشحات الآتية في عدَّة الجليس: رقم 88 ص. 134-135، رقم 177 ص. 269-270. رقم 167، ص. 254-255، رقم 249، ص. 375-376، رقم 112، ص. 170-171، رقم 284، ص. 426-427، رقم 304، ص. 457-458، رقم 319 ص. 478-479... إلخ.

لي أن تعلّمت اللغة الفارسيّة عملت هذا الموشّح وغيره، وجعلت خرجته فارسيّة بدلا من الخرجة البربريّة⁽²⁷⁾.

ما يمكن أن يستخلص من كلام ابن سناء الملك هو أنّ تضمين الموشّحات لخرجات مطعّمة بعبارات أجنبيّة تقليد فنّي سنّه الأندلسيّون للخروج عن الرّثابة والمألوف. الأمر الذي دفع هذا الوشّاح إلى تطعيم خرجات موشّحاته بعبارات فارسيّة، رغم أنّه وهم حين قال : إنّ الألفاظ الدّخيلة في الموشّحات الأندلسيّة بربريّة، لأنّه يجهل البربريّة والإسبانيّة معا : إذ لم أقف - حسب المصادر التي اطّلت عليها - على موشّحة واحدة تتضمّن خرجتها ألفاظا بربريّة :

ومن تطبيقات ابن سناء الملك في هذا المجال موشّحته التي مطلعها :
في خديك من صير اللآذ شابّ الياسمين
ودع ذافيا حيرة الواش من ذا السحر المبين
وخرجتها يمهّدها بقوله :

فلما جئت منه قبلة شدت بالفارسي :
دانستي كي بوسه بمن داز دهّا انكسترين
أو ازكواي دست من باش ببوسته ممّ شين⁽²⁸⁾.
ومعناها بالعربيّة :

أعرف من أعطاني القبلة ؟ ما زلت أذكّرك
وهذا الذي أنعم عليّ بالقبلة أحترمه⁽²⁹⁾.

وفي هذا الصّدّد نقول : هل يمكن للفُرس أن ينازعوا في الموشّحات العربيّة لأنّ ابن سناء الملك وظّف عبارات فارسيّة في خرجات موشّحاته ؟

إنّ مسألة تضمين عبارات أجنبيّة في فنون الشعر العربيّ سنّة قديمة تعود إلى العصر الجاهليّ، فشعر الأعشي وغيره حافل بالألفاظ الفارسيّة. وقد سبق للمرحوم د. عبد اللّطيف

(27) «فصول الفصول وعقود العقول». مخطوط باريس ورقة : 21 نقلا عن كتاب دار الطراز ص : 181 هامش المحقّق رقم : 2.

(28) دار الطراز : 181-183، وله موشّحة أخرى من هذا الصّنف (توشيح التوشيح : 47-49).

(29) دار الطراز : 183 هامش المحقّق رقم : 1.

السَّعداني أن كتب مقالة هامة في هذا الموضوع بعنوان «ذوي اللسانين»⁽³⁰⁾، كما أن مصادر الأدب العربي غنية بالأمثلة. من ذلك في كتاب الأغاني قول شاعر عباسي :

إِذْ قَالَ لِي : يَا «مُرْدَمَنْ خُرَّ» وَكُرَّهَا عَلَيَّ وَكُنَانِي مَزَاحًا بِصَفْوَانٍ
قال أبو الفتوح : «هذا كلام بالفارسية تفسيره : يا رجل اشرب النبيذ»⁽³¹⁾.

وقول شاعر آخر :

فقال: «أزل بشين» حين ودّعنا وقد لعمرك زلنا عنه بالشّين

قال أبو الفرج : قوله «أزل بشين» كلمة سريانية تفسيرها «أمضي بسلام...»⁽³²⁾.

والأمثلة من هذا القبيل كثيرة. وفي هذا الصدد أجد في قولتين لباحثين جليلين ما يمكن دحض آراء الذين يرون أن الموشحات الأندلسية نشأت متأثرة بالأغاني الشعبية الإسبانية «الرومانشية» لوجود ألفاظ أعجمية في بعض خرجاتها، الأولى للدكتور مصطفى الشكعة، قوله: «إن ظهور الخرجات الأعجمية ليس دليلاً على أن أصل الموشحات إسبانية، فمن البديهيات أن مجتمع الأندلس كان يتكلم لغتين اللغة العربية واللغة الرومانشية أو اللطينية، وفي فترة التساهل في النظم خاصة إذا كان الهدف من المنظومة أن تغنى، يمكن للشاعر نفسه الذي يجيد اللغتين أن يجعل بعض ألفاظها عامية محلية، وهو نفس ما فعله الوشاحون فطعموا موشحاتهم بألفاظ أعجمية»⁽³³⁾.

أما القولة الثانية فهي للأستاذ هلال ناجي وردت في مقدمة تحقيقه كتاب «جيش التوشيح» قال: «إن الخرجات الرومانشية في الموشحات الأندلسية كتبها الوشاحون الأندلسيون الذين كانوا يحسنون اللغتين العربية والرومانشية الدارجة ليملحوها بها الموشحة ويطعموها بألفاظ أعجمية على غرار ما فعل قبلهم المشارقة فيما يسمى في الشعر المشرقي «الملمع»* الذي جمع فيه الشعراء بين اللغتين العربية والفارسية. فالخرجات الأعجمية من تأليف الوشاحين العرب، وليست مقتبسة من الشعر الغنائي الروماني»⁽³⁴⁾.

(30) نشرتها مجلة المناهل المغربية، العدد الثاني عشر عام 1978، ص ص: 221-256.

(31) الأغاني للإصبهاني 307/5 ط. دار الحياة - بيروت 1955.

(32) نفسه : 162/5.

(33) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : 385 ط. الرابعة 1979 دار العلم للملايين بيروت.

* مأخوذ من الخيل الملمع إذا كان فيه تلامع، أي يكون في جسده يقع تخالف سائر لونه. (لسان العرب، مادة: لمع).

(34) جيش التوشيح - مقدمة المحقق : 4 ط تونس 1967.

إضافة إلى هذا فإنّ الوشّاحين ونقّاد هذا الفنّ في الغرب الإسلاميّ سمّوا هذا الصنف من الموشّحات ذات خرجات أعجميّة بالموشّحات الزنيمّة** تمييزاً لها عن الموشّحات الأصليّة التي لم تتسرّب إليها العُجْمَة.

ثالثاً : ما لاحظته هؤلاء الباحثون من خروج الموشّحات عن التقاليد العربيّة في الشعر كنتغزّل الفتاة بحبيبها، ورأوا في ذلك حجّة على «إسبانيّة» الموشّحات. إنّ هذه الملاحظة لا ترقى إلى مستوى الحجّة، لأنّ هذه المخالفة إنّما توجد في الخرجة وحدها، وما قبل الخرجة يتفق مع سنّة الشعر العربيّ، كما أنّ هذه المخالفة وقع فيها شعراء من أمثال عمر بن أبي ربيعة، وقد وقف عندها النقاد وفي مقدّمتهم ابن رشيق في عمدته⁽³⁵⁾. ثمّ إنّ كلاً من عمر بن أبي ربيعة وأصحاب هذه الموشّحات يتخيّلون المرأة وهي تعبر عن مشاعرها ورغباتها، وليس ذلك من قبيل الحقيقة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فديوان الشعر العربيّ - منذ القديم - لا يخلو من تغزّل الفتاة بحبيبها. ألم يلق عمر بن الخطاب بالشاعرة الذكفاء في الحبس حين بلغه تغزّلها بنصر بن حجاج قائلة :

هل من سبيلٍ إلى خمر فأشربها	أم هل سبيل إلى نصرٍ بن حجاج
إلى فتى ماجدٍ الأعراقٍ مُقتَبِلٍ	تُضيءُ صورته في الحالكِ الداجي
ولما حبسها كتبت إليه تؤوّل غزلها وتنكره بطريقة ذكيّة، وتستعطفه بقولها :	
قل للإمام الذي تُخشى بؤادره	مالي وللخمر أو نصرٍ بن حجاج ؟
إنني عنيتُ أبا حفص بغيرهما	شرب الحليب وطرف فاترٍ ساج
إنّ الهوى زلّة التقوى، ونورهما	طولُ التهجد في ليلٍ يادلاج ⁽³⁶⁾

كما أنّ أخبار ليلى الأخيلية وعلاقتها بتوبة بن الحُمير، وشعر ولادة في ابن زيدون التي بادلته العواطف والغرام بنفس الحرارة... كلّ ذلك لا يغيب عن أذهان قراء الشعر العربيّ القديم.

** والزنيم في اللغة الابن غير الشرعيّ أو الذي ينسب إلى قوم هو عنهم غريب. (لسان العرب، مادة: زنم).

(35) العمدة : 124/2.

(36) فتوح البلدان لبلّاد العجم وخراسان للواقدي: 80 ط. مصر 1309 هـ.

وأماننا نموذج مما قالته أعرابية مسنة تذكر ماضي أيامها وغرامها في شبابها ، قولها :

جريتُ مع العشاقِ في حلبةِ الهوى ففقتُهُم سُبَقًا وَجِئْتُ على رَسلي
تَسَرَّيلْتُ ثوبَ الحُبِّ مُذْ أَنَا يافعٌ ومُتَعْتُ منه بِالصُّدودِ وَبِالْوَصْلِ
فَمَا لَيْسَ الْعُشَّاقُ مِنْ حُلِّلِ الهوى ولا خَلَعُوا إِلَّا الثِّيَابَ الَّتِي أَبْلِي
ولا شَرِبُوا كَأْسًا مِنْ الحُبِّ مَرَّةً ولا حُلُوَّةً إِلَّا شَرَابُهُمْ فَضْلِي⁽³⁷⁾.

وإبعاء : ما قيل في مسألة شيوع أوزان الموشحات التي لا تجري على العروض

العربي. فابن سناء الملك كان أول من نبه إلى هذه الظاهرة حين صنف الموشحات حسب أوزانها صنفين رئيسيين: قسم يسير على أوزان البحور الخليلية، وقسم هو مالا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب، وهذا القسم منها هو الكثير الذي لا ينحصر⁽³⁸⁾. وكان هذا الوشاح الناقد يسعى إلى ضبط عروض الموشح، إلا أنه اعترف - ضمنيًا - بفشله في سعيه هذا، ثم حاول باحثون آخرون المحاولة نفسها وفي مقدمتهم «هارتمان» الألماني في كتابه الموشح، فوصل إلى نتيجة مفادها أن للموشحات كلها (146) وزنًا أو بحرًا مشتقة من بحور الشعر العربي، إلا أنه أعرض عن نماذج كثيرة وجدها لا تخضع لهذه الموازين مما يدل على فشله، أيضا في المسألة⁽³⁹⁾.

وفي عام 1975 نشر فقيده البحث الأستاذ محمد الفاسي مقالة علمية رفيعة المستوى بعنوان «عروض الموشح» أوضح فيها أسباب فشل الباحثين في تحديد عروض الموشح بقوله : «والسر في فشل هذه المحاولات هو أن أصحابها ساروا على مبدأ البحث عن الأوتاد والأسباب والتفاعيل وميادين البحور العروضية، مع أن الموشح... كان السبب في اختراعه التخلص من هذه الطريقة والخروج عن هذا الضنك الضيق الذي ثار عليه أهل الأندلس والمغرب...»⁽⁴⁰⁾.

وانطلاقا من هذا يمكن القول: إن تعليل هؤلاء، لإثبات «إسبانية» الموشحات من هذه النقطة، مجانب للصواب، لأن الموشح لم يكن محصورا في بحور الشعر الخليلية بقدر ما كان

(37) شاعرات العرب جمع وتحقيق عبد البديع صقر، منشورات المكتب الإسلامي 1967.

(38) دار الطراز : 44-47.

(39) 199-201: Das Muwassah ولخص هذه المحاولة د. جودت الركابي في مقدمة تحقيقه لكتاب دار

الطراز ص: 14.

(40) عروض الموشح، مجلة المناهل، العدد الثاني ص. 45 عام 1975، الرباط.

تطوّرا وثورة على التَّنَاطُق الضَّيِّق الَّذِي حُصِرَ فِيهِ إِبْدَاعُ شِعْرَاءِ الْعَرَبِ. فَالْمَوْشَحُ كَسَائِرُ الْفُنُونِ لَهُ تَقَالِيدُهُ الْخَاصَّةُ وَعُرُوضُهُ الْخَاصَّةُ بِهِ أَيْضًا.

وَلِلْإِشَارَةِ فَإِنَّ الْمَرْحُومَ الْأَسْتَاذَ مُحَمَّدَ الْفَاسِيَّ حَدَّدَ فِي الْمَقَالَةِ السَّابِقَةِ قَوَاعِدَ عُرُوضِ الْمَوْشَحِ وَمِيزَاتِهِ، فَجَاءَ عَمَلُهُ نَظِيرًا لِمَا قَامَ بِهِ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِدِيِّ فِي حَصْرِ بَحُورِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ. ثُمَّ إِنَّ الْخُرْجَاتِ الْأَعْجَمِيَّةَ جَاءَتْ مَنْسَجَمَةً مَعَ وَزْنِ بَاقِي أَقْفَالِ الْمَوْشَحَةِ وَبَحْرَهَا، كَمَا لَاحِظَ ذَلِكَ د. سَيِّدُ غَازِي فِي تَوْضِيحِهِ لِأَوْزَانِ كَافَّةِ الْمَوْشَحَاتِ الَّتِي جَمَعَهَا فِي دِيْوَانِ الْمَوْشَحَاتِ.

خامسا : عبارات الخرجات المطعّمة بالأعجميّة والألفاظها

فِي قِرَاءَتِي الْمَتَوَاضِعَةَ حَاوَلْتُ حَصْرَ أَهَمِّ الْكَلِمَاتِ وَالْعِبَارَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي هَذِهِ الْخُرْجَاتِ (وَعَدَدُهَا 46 خُرْجَةً)، فَوُجِدَتْ أَنَّ أَغْلَبَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَالْعِبَارَاتِ مِنَ الْمَعْجَمِ الْمَتَدَاوِلِ بَيْنَ الْعِشَاقِ وَأَهْلِ الْهَوَى فِي بَيْئَةِ الْأَنْدَلُسِ الَّتِي كَانَتْ تَعِيشُ اَزْدَوَاجِيَّةَ اللَّغَةِ (الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْبَانِيَّةِ) بَعْضُهَا إِسْبَانِيَّةً قَدِيمَةً وَبَعْضُهَا الْآخَرُ قِشْتَالِيَّةً قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا تَطَوُّرٌ وَتَحْوِيرٌ فِي النِّظَامِ الصَّرْفِيِّ وَالتَّرْكِيبِيِّ، بِالإِضَافَةِ إِلَى كَلِمَاتٍ عَرَبِيَّةٍ فَصِيحَةٍ وَعَامِيَّةٍ. لَكِنِ الْوِشَاحُ الْأَنْدَلُسِيُّ حَاوَلَ أَنْ يَخْضَعَ كَثِيرًا مِنْهَا لِلنِّظَامِ الصَّوْتِيِّ الْعَرَبِيِّ وَأَنْ يَكَيِّفَهَا مَعَ إِيقَاعِ الْمَوْشَحِ وَوِزْنِهِ.

وهذه نماذج من تلك الألفاظ :

amor, amante, amare	أُمُور، أَمُور، أَمَار، أَمْتَدِي
besas, bésame, besos	فِرَاش، بَجَم، بِيَجَم، بِشُورِسْ
mi corazon	مِي كُرْشُون، قُرْجُونِي
dulce	دُلْجِي
dormire, dormir	دُورْمِيرِي، دُورْمِيرِي
non me toques	نُنْ مَنْطُوكِشْ
mi alma	مُوَالْمِي
no quiero no	نُونْ كَارُونُونْ
nose queda	نُشِي كِيَنْدِي
mamma	مَمَّ، مَمَّا، مَمَّا
ireme	يِرِيمِي
que fâre	كَفَرِي كَفَرِي (مَاذَا أَفْعَلُ)
vienes, ves, averte	بَيْنَ إِيشْ بِيَشْ، أَفَرْتِ

وأماننا بعض النماذج اخترت مقتطفات منها، وهي :

يقول محمد بن عبادة المالقي، ولعله ابن عبادة القزاز في موشحة مطلعها :

من مَوْرِدِ التَّسْنِيمِ مِنْ سِلْكِ فُلُجٍ ذِي غُرُوبٍ فِي قَلْتِ
إِنْ ذَاقَهُ عَاطِشٌ مُلْطَى وَجِيبٍ أَطْفَأَ اللَّهَيْبُ فِي الْوَقْتِ
وخرجتها :

مي سيدي إبراهيم يَانُوكَا مِنْ دُلُجٍ قَانَتْ مِيبِ ذِي نُخْتِ
إِنْ نُوْنُ شُنُونُ كَارِشِ يَسْرِي تِيبِ غُرْمِي أُوْبِ أَفِرْتُ⁽⁴¹⁾
وبالإسبانية القديمة :

Mi sisi Ybrahim yà nome Men dolce

vente mi abe de noche y si non quieres

ireme abi be gar mi obe verte

ومعناها :

سيدي إبراهيم ياذا الإسم العذب، أَقْبِلْ إِلَيَّ فِي اللَّيْلِ، فَإِذَا لَمْ تَشَأْ قَدِمْتُ إِلَيْكَ، وَلَكِنْ
أَخْبِرْنِي أَيْنَ أَلْقَاكَ ؟

وهذا نموذج آخر لمجهول، مطلعته :

جَرَّرِي فَضَّلَ ذَلِكَ الْمِرْطِ وَأَسْحَبِي الشَّرْبَ رَبَّةَ الْقُرْطِ
إِلَى أَنْ يَخْتِمَهَا بِقَوْلِهِ :

فَشَدَّتْ ثُمَّ أَعْرَضَتْ لِعَبَا عَجَبًا مِنْ مَقَالِهَا عَجَبًا
نَنْ تَمْرَايَ إِلَّا كُنَّ الشَّرْطُ أَنْ تَجْمَعَ خَلْجَالِي مَعَ قُرْطِي
إِلَّا كُنَّ الشَّرْطُ non te amare⁽⁴²⁾

أَنْ تَجْمَعَ خَلْجَالِي مَعَ قُرْطِي

ولعلَّ هذا التضمين للكلمات الأعجمية من باب الخروج من الرتبة المعهودة في الشعر،

ومن قبيل التلميح والتفكه الذي ألحَّ عليه نقادُ التوشيح⁽⁴³⁾. ويعود السبب في ذلك إلى مقدار

(41) عدَّةُ الجليس رقم 22 ص. 33 ديوان الموشحات 184/1، و. Las Jarchas romances p. 44.

(42) عدَّةُ الجليس رقم 140 ص. 211-212، Las jarchas romances pp. 110.

(43) انظر ما قاله في هذا الشأن ابن سناء الملك في دار الطراز : 40-41.

الاختلاط والاقتراب من الناطقين بهذه اللغة، كما أن ثقافة الوشاح ومعرفته للغة الإسبانية جعله يحلّي موشحته بهذه العبارات التي كانت متداولة في الخطاب اليومي للأندلسيين، وبخاصة أصحاب الطرب وحضور السهرات في الأندية وقصور الأمراء.

كل هذا يؤكّد أنّ الخرجات المطعّمة بألفاظ اللهجة الرومانشية أو ألفاظ اللغة القشتالية هي من تضمين الوشاح العربي نفسه، ولا توجد علاقة بين تأليف الموشح وأوزانه والخرجة، وأي أثر أجنبي كما يفترض هؤلاء الباحثون، والدليل على ذلك اختلاطها بالتعابير العربية، وتكييف الألفاظ الأجنبية مع قالب الموشح بناء ووزنا وقافية.